الفصل الخامس

نكبة فلسطين

obeikandl.com

obeikandl.com

فلسطين جرح لم يندمل بعد ونزيفه لا يزال حاداً ومستمراً وناشباً فى ضمير العالم العربى والإسلامى ومعلقاً به؛ ما دام الاحتلال الغاشم يدنس المقدسات، وينشب مخالبه فى جسد الأمة العربية والإسلامية .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن محاولات تهويد أرض فلسطين بإقامة وطن قومى لليهود على أرض تلك البقعة الطاهرة كان قد بدأ منذ عقود طويلة وبالتحديد منذ عشرينيات القرن العشرين منذ أن كانت فلسطين مستعمرة بريطانية- بعد أن كانت بقعة مهملة فى عهد الحكم العثمانى- وقبل تمكين اليهود من وطن قومى لهم يكون بمثابة الشوكة فى ظهور العرب، وهى شوكة تمثل اليد الطولى والامتداد الطبيعى للاستعمار الغربى الذى وجد بينه وبين اليهود مصالح مشتركة فى تمكينهم من إقامة وطنهم على أرض الشرق وخاصة فى أرض فلسطين.

وبالفعل نجحت مخططات الاستعمار وتوالى نزوح اليهود من شتى بقاع العالم على أرض فلسطين حتى أوشكوا على التهام تلك الأرض؛ لذلك يمكن القول بأن نكبة فلسطين تشكل «مأساة عميقة مست نفس كل عربى وأثارت صراعاً عسكرياً وسياسياً ممتداً كان له، وما يزال، أكبر الأثر فى أوضاع الوطن العربى وسياساته واقتصاده»[1]. فضلاً عن أن هذا الوضع المأساوى قد سدد طعنة مباشرة إلى «الإحساس القومى العربى فى الصميم»[2]. لذلك يمكن القول بأنه «ربما كانت أكبر قضية شغلت الفكر القومى هى قضية فلسطين وما نتج عنها من مأساة اللاجئين، فقد جمعت هذه المأساة بين الشعراء على صعيد واحد وخاصة عند الجيل الأول من رواد الشعر الحديث»[3]، فقد «سيطرت (فلسطين) على مشاعر الشعراء وأفكارهم فى مصر والعالم العربى كله»[4]، وخلفت فى نفوسهم مرارات لا تحد، وأوجاعاً لا تجدى معها محاولات النسيان أو التناسى. لذلك يمكن القول بأنه ما من شاعر مصرى صادق عاصر تلك المأساة إلا وتتناوب عليه

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر- د/ عبدالقادر القط- سنة ١٩٩٧- ص٤٩٥.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر- د/ على عشرى زايد- ص٤١.

(٣) بناء الأسلوب فى شعر الحداثة التكوين البديعى- د/ محمد عبدالمطلب- ط ٢ – دار المعارف – ١٩٩٥م ص١٨٩.

(٤) الاتجاه الواقعى فى الشعر العربى الحديث فى مصر- د/ ثابت محمد بدارى- ص١٨٥.

مشاعر الإحباط التى تولدت من نكبة مكنت اليهود من أرض فلسطين المقدسة، وشردت الشعب الفلسطينى، وتم طرده من أرضه؛ ليتحول جله إلى مجموعة من اللاجئين المشردين فى شتى بقاع العالم، ومن بقى من هذا الشعب فى داخل فلسطين ظل يعانى القهر والقمع والإذلال والقتل واتميز العنصرى.

ومن ثم بدا هذا الشعور بالإحباط على ما أنتجه عدد كبير من الشعراء المصريين من أشعار تبكى ضياع تلك الأرض المغدسة. وعلى رأسها بالطبع (مدينة القدس) التى اشترك الشعراء المصريون مع غيرهم من الشعراء العرب «فى حلم واحد مشترك، وهو عودة مدينة القدس إلى الحضن العربى، وإلى الهيمنة الفلسطينية من جديد، بعد أن انتزعت عنوة من العرب بعد عدوان يونية ١٩٦٧»[١].

ومن هؤلاء الشعراء أحمد عبدالمعطى حجازى الذى بدا متشائماً محبطاً؛ لما آلت إليه فلسطين وأهلها بعد النكبة:

«الأرض أصبح اسمها يهوذا
فكيف أصبحت تسمى يا قمر؟
وهل ترى تجيبنا يهوذا
إذا سألناها حناناً بالشجر!
أحلم أنى يا فلسطين أعود
أعود وحدى متسللاً إليك فى المساء
أسبر تحت أنجم ساطعة
على رمال رطبة
والبحر يأتى من بعيد
وفى شراع، فى مكان ما بصبص من ضياء
يصحو قليلاً، ثم يخبو من جديد
وأنت فى شبه نشيد

(١) القدس فى الشعر العربى- إبراهيم حلمى الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٨- ص٢٨١.

وأنت فى شبه نشيد تشرقين يا بلادى
تتجلين لطفلك الوحيد!»[1].

إنه التوحد مع ذلك الفلسطينى المشرد الذى يحلم يائساً بالعودة إلى بلاده التى سلبها اليهود، وتركوا شعبها نهباً للتشرد والضياع. ويعطى الشاعر للقضية بعدها المأساوى الذى سيتجلى أثره بعد مرور الأجيال:

«من يستطيع يا ترى،
أن يحمل الأمن الذى يسره آباؤنا لنا
وهم رقود فى اللحود
فندخل الدنيا شبابا!
من يستطيع أن يمد للجدود
جسراً وبابا
لينفذوا عبر الدم الهجين والمنفى إلى أبنائه
يعلموهم الكتابا
ويسألوهم الإيابا!»[2].

وإذن فإن ما يفقده الفلسطينى المشرد عن أرضه غير قابل للتعويض أو المساومة. إنه الانتماء إلى الأرض، والإحساس بها الذى سيفقد تدفقه وجيشانه شيئاً فشيئاً حتى يستحيل رماداً:

«قد نستطيع أن نفر بالجلود
نحمل فى رحالنا الثيابا
ونحمل النقود
لكن شيئاً ما سننساه هناك فى البلد
شيئاً سيبقى بعدنا ينتحب انتحابا

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى- ص٤٢٥، ٤٢٦.
(٢) المصدر السابق- ص٤٢٤.

ويملأ الأماكن اغترابا
وبعد أن ييأس من عودتنا يموت للأبد
حينئذ نسقط ميتين فى المنفى البعيد!»[1].

هى إذن أشياء لا تشترى- على حد تعبير الشاعر أمل دنقل- إنها تتلخص فى قضية الانتماء والتواصل والإحساس بنبض هذا الوطن المسلوب الذى يطلب التضحية من أبنائه على الرغم من عدم مشاهدتهم منه إلا حنينهم إليه:

«خيمة، وعمود من النار
تلك فلسطين تطلع ثانية بعد أيلول
تطلع بعد حزيران
تطلع من زمن الشهداء،
وتمتد حتى تلامس من دمها صبية فى المخيم
لم يشهدوا من فلسطين إلا الحنين إليها
وهاهم يمدون أجسادهم لتراب فلسطين قنطرة
يملأون بأشلائهم هوة
تتحدر بين مخيمهم وسماء الجليل!»[2].

والشاعر يربط دائماً ضياع فلسطين؛ بعدم دفاع العرب عنها، وتضييعهم لها. بل تآمرهم عليها فى بعض الأحيان:

«أنهار من عسل!
أم تلك دماء فلسطين
جرت نفطاً فى أمعاء التجار
وكتاب فتاوى الطاغوت المنتخب»[3].

(١) السابق نفسه- ص٤٢٣.
(٢) المصدر السابق- ص٥٣٥.
(٣) المصدر السابق- ص٥٣٠، ٥٣١.

-«وفلسطين واقفة وحدها
خيمة فى العراء
ترد الجحافل عن ملكوت التشرد
من بعد ما فتحت لهم المدن السبع أبوابها
ودعاهم ملوك الطوائف للصيد والقنص
فى الجسد العربى الجميل!»[1].

إنه طريق شاق، ومستقبل مظلم رسمه حكام العرب المتخاذلون الذين عادوا من جديد إلى واجهة الأحداث. ولكن هذه المرة قد تلطخت أيديهم ووجوههم تماماً بعار تفريطهم وبيعهم للقضية الفلسطينية.

أما الشاعر محمد التهامى فتعالت صيحاته الصارخة؛ للمنافحة عن القضية الفلسطينية، ودحض افتراءات الكيان الصهيونى عن أحقية اليهود فى إقامة وطن قومى لهم على أرض فلسطين:

«إن الذى زيفوه كله كذب ... ما لليهود بدار أهلها عرب؟
ولو بنوا فوقها الأطواد شامخة ... وأسكنوا فى حماها كل من جلبوا
ولو تعاون فى إسكانهم دول ... وقدموا لهم كل الذى طلبوا»
-«هذى فلسطين دار العرب ما بقيت ... ما بارحوا أرضها يوماً وما ذهبوا
هم يعرفون- وما هذى بخافية ... أن الذى سلبوه ليس يستلب
هل يسرق الناس أوطاناً برمتها؟ ... هل كل ما خلف الأجيال يغتصب
هل يجذبون الثرى من تحت أرجلنا ... جذباً؟ وهل أرضنا ترضى فتنجذب؟
هل يهدمون لشعب كل عالمه ... مما بنته له الأجيال والحقب
هل يصدقون؟ وهل فى الطوق ما زعموا؟ ... والله قد كذبوا.. والله قد كذبوا»[2]

«وبما أن خصال اليهود المذمومة، البهت والخديعة والنفاق والجبن فإن الطابع

(١) المصدر السابق- ص٥٣٧.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ١/ ٢٣٢، ٢٣٣.

العام لعدائهم ينهض على السرية والحرب النفسية أكثر من الصدام المسلح»[1]. لذلك عاد الشاعر إلى تأكيد تحذيراته من جديد:

قال اليهود- ويا شؤم الذى زعموا- إن اليهود بأرض العرب قد وعدوا
شل اللسان الذى يهذى بباطلهم شل اللسان وشلت للئام يد
إن كان أغراهم ما كان ويلهم عند النفير إذا ما استيقظ الأسد
أقدامه فى الفرات الحر راسخة وفى ذر النيل منه التاب واللبد
فى يومها لا نفوذ الغرب ينقذهم منا ولا عدد يجدى ولا عدد
فى الحق والوحدة الشماء تدفعه يأتى اليقين ويمضى الزيف والزبد»[2]

فلسطين أرض عربية لا تسترد إلا بوحدة العرب، وتكتلهم فى مواجهة هذا العدو الباغى. ولكن العرب قد بدوا على درجة من التشتت والضعف لا تمكنهم من الدفاع عن حقوق الفلسطينى المشروعة، واسترداد الأرض المغتصبة. يضاف إلى ذلك مساندة الغرب لإسرائيل التى تمثلت فى هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الذى يرضخ لمطالب الدول الكبرى المنحازة إلى إسرائيل:

«لا القول لا الفكر لا القرطاس
لا القلم
قد أدركوا ما جنت فى الهيئة
الأمم
يا ضيعة الأمم الكبرى وقد
فضحت
فلا حياء بدا منها ولا قيم
هانت مبادؤها جهراً فمزقها

(١) فى النقد الأدبى الحديث- د/ متولى محمد البساطى . ط ٢ – مطبعة الشروق – ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م - ص١١٣.

(٢) قصائد مختارة من أعمال الشاعر محمد التهامى- الهيئة المصرية العامة للكتاب- سنة ١٩٩٨ - ص٤٩.

وداسها كل من تسعى به قدم»[1].

ويقول فى موضع آخر:

«(مجلس الأمن) والوفود لديه ... يا لهم من ستار ظلم ويا له
مجلس يشهد الجميع عليه ... كيف يوفى خداعه واحتياله
يضمن الحق كله بقرار ... موهم أن صاحب الحق ناله
يوهم الناس أنهم فى حماه ... وهو يبدى شموخه واختياله
فإذا أومأ (الطغاة) إليه ... راح يبدى خضوعه وامتثاله
ويسوى المظلوم بالظالم الوغد ... وهذا الذى يسمى عداله!!
ويقول السلام وهو كمين ... تحت ظل السلام أخفى حباله
بئسه مجلساً وبئس قراراً ... بئس ما قدموا وبئس (الوكالة)»[2]

• ويصل اليأس والإحباط بهذا الشاعر إلى قمته عندما نسمعه يقول:

«ماذا تقول؟ فقد أرهقت لى أذنى ... وما تقول.. كلام ليس ينفعنى
هذا الكلام سرى فى نبض أوردتى ... ودب فيها دبيب السم فى البدن
جار الكلام على حقى وأنكره ... كأنه فى حساب الخلق ينكرنى
يدور حول حقوقى فى مكابرة ... وينزع الحق من أرضى وينزعنى»[3]

هكذا تمثل الشاعر مأساة الفلسطينى الذى طرد من أرضه، وعاش شريداً يستجدى الشفقة والعطف من الآخرين حتى مل تلك الحياة التى غلفتها الحيرة والغربة والتشرد:

«لا تلمه إذا أطال سؤاله ... ضاق ذرعاً بما يحس، فقاله
قوة الحيرة المريرة دهراً ... عذبته، وأفقدته احتماله
يسأل الناس حوله أين يمضى؟ ... أين يلقى، وكيف يلقى مآله
يحمل العمر كله فى يديه ... ليس يدرى أيان يلقى رحاله

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٤٦٤.
(٢) السابق- ١/ ٢٤٠، ٢٤١.
(٣) ذاته ٢/ ٤٦٦.

كلـــما هــــم خلـــف وهـــم رآه ... ســـراباً، فارتـــد يخشـــى ضـــلاله
واقـــف تصـــرخ الـــذئاب عليـــه ... وتقـــيم المنـــون ســـداً حيالـــه
فظـــلام الإمســـاء يشـــقى لياليـــه ... ونـــور الإصـــباح يقلـــق بالـــه
إنـــما أنـــت جاهـــل مـــا يعـــانى ... مـــثلما أنـــت جاهـــل مـــا جـــرى لـــه»
لا تقـــل صـــبركم، فهـــذا حـــديث ... كـــل مـــن جـــاء قبـــل ذلـــك قالـــه
كـــم وكـــم رددوا المقالـــة حتـــى ... لم يعـــد قولهـــا يثيـــر خيالـــه»[1]

وإذا كان الشاعر فى تلك القصيدة يستخدم ضمير الغائب، فإننا نجده فى موضع آخر يستخدم ضمير المتكلم؛ ليتحدث من خلاله عن هذا اللاجئ الفلسطينى البائس:

«أصـــبح القتـــل فى حيـــاتى طريقـــاً ... ورفيقـــاً علـــى الطريـــق وغايـــه
صـــار اســـمى إذا ذكـــرت بـــأرض ... عـــن قتيـــل بغيـــر ذنـــب كنايـــه
حـــل ذبحـــى لكـــل مـــن كـــان حتـــى ... بـــالغوا فيـــه حرفـــة وهوايـــه
غـــار أهلـــى مـــن العـــدا فتبـــاروا ... ثـــم صـــاروا أشـــد مـــنهم نكايـــه
وزع القتـــل فى المخـــيم رهـــط ... كـــان فى وهمنـــا رســـول العنايـــه
يفجـــع القتـــل إن رمتـــه يمـــين ... كنـــت فى حضـــنها نشـــدت الرعايـــه
قـــد قصـــدنا حمـــاهم ليـــت أنـــا ... مـــا لجأنـــا ولا نشـــدنا الحمايـــه»[2]

وهكذا فقد صار التقتيل والموت لازمة من لوازم الحياة لفلسطينية فى مخيمات اللاجئين، وقراهم ومدنهم يسوقه العدو الصهيونى وبعض الأنظمة العربية. وهى حالة لا تخلف غير مشاعر اليأس والإحباط، وتؤكد على فكرة ضياع الأرض بغير عودة. وهو ما يخلف شعوراً بالأسى والندم الذى يصل إلى تمنى الموت:

«يـــا ليتنـــى قـــدمت حتـــى لا أرى ... شـــعبى يشـــرد مـــن عزيـــز ترابـــه
وتشـــد مـــن قدميـــه أرض حـــرة ... عضـــت جنادلهـــا علـــى أنســـابه
وأرى جـــدار العـــرب فـــوقى ينحنـــى ... لتشـــيد «إســـرائيل» فـــوق ترابـــه»[3]

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ١/ ٢٣٨، ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق – ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق – ص٢٩٤.

obeikandi.com

هذا الشاعر الصادق لم تقف مشاعره المحبطة عند حدود تجاوبه مع الإنسان الفلسطيني المشرد، لكنها تجاوزت ذلك؛ لتلتصق بالمقدسات الإسلامية التي دنست تحت الاحتلال الصهيوني، وباتت تستغيث وتطلب الخلاص ولا من مجيب.

وفي هذا الإطار يبكي الشاعر مدينة القدس المحتلة بما تحمله تلك المدينة من قيم روحية في نفوس المسلمين على مر العصور؛ «فالقدس التي نظر إليها العربي المسلم في صدر الإسلام، لا تختلف في كثير عنها لابن العصور الوسطى أو ابن الألفية الثالثة، لأنها- في الحقيقة- تحمل طابع القداسة ذاته الذي لم ولن يتغير بتغير دورات الزمن في أي عصر من العصور»[1].

يقول الشاعر:

«أيا قدس ديس المكان الجليل ... وغطي على الطهر رجس أشر
وسيقت لك النار خجلانة ... وكاد ينوح عليك الشرر
وفي قدميك مضوا يحفرون ... وتشهق تحت علاك الحفر
ويحرسك المسلمون الصغار ... على حين خاف الكبار الخطر»[2]

• وبالطبع لا يمكن أن يغيب (المسجد الأقصى) عن هذا المشهد الباكي:

«سمعت «القبلة الأولى» تنوح ... وقد صرخت لحرقتها الجروح
فإن يعلو بقبتها أذان ... فهذا جرح نكبتها يصيح
فحينا نكتم الآلام كبراً ... وحينا رغم عزتها تبوح
فقد جاست بساحتها رياح ... تغير على الحصون وتستبيح
تهز رواسي الأمجاد فيها ... لتسقط عن قداستها الصروح
فهل- يا رب- تنهزم العوالي ... ويهدم شامخ الأطواد ريح»[3]

ثم يتوجه الشاعر بالتأنيب واللوم إلى المسلمين الذين قعدوا عن نصرة المسجد الأقصى، وتباطؤوا في تخليصه من أيدي اليهود؛ فضاع منهم:

(١) القدس في الشعر العربي- إبراهيم حلمي- ص١٠.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامي- ٢/ ٥٠.
(٣) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٥.

«أيها المسلم ماذا تقصد؟ لم يعد فى ذا المكان المسجد
أنت يا مسلم أبطأت الخطى وتوانيت ففات الموعد
لم تقم للفرض فى ميقاته بل تركت العمر منا ينفد
وسهوتم عن صلاة حرة لو أقيمت ما دهانا (المعبد)
أذن الأقصى لدى أوقاتها ودعاكم صارخاً يستنجد
كأن يدعوكى تذوبوا لهفة لم يكن فى ظنه أن تبعدوا
فنكصتم فى ضياع مطبق لم يقم سيف ولم ترفع يد
قد أثاروها صغاراً وحدهم سددوا أحجارهم واستشهدوا
أشعلوا النيران فى أجسادهم ثم ظنوا أنها لا تخمد
وأضاءوا فى غيابات الدجى عن يقين أنكم لن ترقدوا
فاتهم أن الدجى أغرقكم لم يعد فيكم سراج يوقد»
-«إننى أخشى إذا أصبحتمو أن يقولوا: إنهم قد هودوا»[1]

هكذا كان تخاذل العرب والمسلمين وراء ضياع المقدسات، وقد شكل ذلك سبباً مباشراً فى مشاعر الأسى التى أفقدت الشاعر صوابه، وأوقعته بين براثن الندم والحيرة والألم حتى وقفت به على مشارف الجنون:

«أكاد أجن من ألمى ومما ذاق إحساسى
ومن دوامة حيرى تحاول خنق أنفاسى
تسد منافذ الدنيا بليل حالك قاسى
ترد النجم تخنقه وتخفيه عن الناس
كأن النور خاصمنا بقلب جاحد ناسى
ضربنا فى مجاهلنا بأخماس وأسداس
لماذا الهول غطانا من الأقدام للراس؟[2]

وإذا كان ضمير (المتكلم المفرد) قد سجل حضوراً فى تلك القصيدة فإننا فى

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٣، ٤٥٤.
(٢) المصدر السابق نفسه- ص٤٨٤.

موضع آخر نجد أن ضمير (المتكلم الجمع) يحتل المشهد تماماً؛ ليعلن عن مأساة جماعية وصلت بهذا الشاعر إلى غاية شعوره بالإحباط:

«صرنا إذا طافت البلوى بمهلكة ... جرت وراء خطاها ألف مهلكة
بتنا حيارى على أبواب قلعتنا ... وقد غزاها الورى من كل منطقة
أسمى المعابد قد فضت قداستها ... فعربد العار فى أرض مقدسة
وطأطأ المسجد الأقصى مآذنه ... صار الأذان عليها بعض حشرجة
أقسى النوازل أن صرنا بلا أمل ... نجرى لمهزلة تفضى لمهزلة»[1]

كما كان لإقامة د/ عبده بدوى ردحاً من عمره فى غربة عن مصر أثر بالغ فى الإحساس بمأساة الفلسطينى اللاجئ الذى طرد من وطنه دون أمل فى الرجوع إليه:

«وفى مرة.. لا غاه طفلى ضاحكا ... «ترى أين تقضى الصيف فالصيف قد أذن؟
فأظلم منه الوجه من فوق آهة ... وأجهش فى الهدبين شىء من الحزن
وضاع مساء كان ينددى بصوته ... وظللنا طير غريب من الشجن
.. تعجب طفلى، ثم قال بحسرة ... ترانى قد أخطأت«.. قلت بل الزمن!
فعمك هذا ليس يرسو بشاطئ» ... فقال «لماذا؟» قلت «ليس له وطن!»[2]

إن مأساة الفلسطينى تبدو فى قول الشاعر (ليس له وطن)، ولكن قصيدة (لن أعود) تفاجئنا؛ إذ يبدو الأمر كأنه إصرار من اللاجئ الفلسطينى على عدم العودة إلى وطنه، وكأن له فى ذلك اختياراً!:

«من وحى فلسطين:
-«أنا لن أعود!
أنا لم أعد إلا هتافاً شاحباً تحت البنود
فدمى يطرز تحت أجفانى الكسالى «لن تعود!»
لن تلمس الأمل الذى سيطل من فجر جديد..

(١) المصدر السابق نفسه- ص٦٢٢، ٦٢٣.
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى٢/ ٣٣٥، ٣٣٦.

ستموت لا قبر يضمك أو فراغ من نشيد..
أو غنوة مصرية.. تهتز من أفق بعيد
سأظل بين الموت أرفع من دمى
علماً يجلجل فى السماء بمأتمى
ويقول إنى «لن أعود!»
أنا لن أعود!»[1].

هكذا إذن يخف عجبنا، ويزول الإبهام تماماً؛ فالشاعر- على لسان اللاجئ الفلسطينى- لا يصر على عدم العودة إلى الديار الفلسطينية، ولكنه يصر بصورة ملحة على تثبيت إحباطه، وضياع أمله تماماً فى تلك العودة، ولذلك يكرر الشاعر عبارة (لن أعود) التى تكررت فى نهاية كل مقطع من مقاطع القصيدة؛ للتأكيد على تبدد أمله فى العودة إلى وطنه الفلسطينى المحتل بعد أن تحول هذا الوطن إلى مجرد هتافات شاحبة تحت بنود اتفاقيات السلام المتعددة دون ظهور بادرة أمل تبشر بقرب عودة الوطن المغتصب للفلسطينى المشرد. ومن ثم فقد زاد الحنين والاشتياق والتشبث بتلك العودة اليائسة:

«فى حضن يافا كان لى بيت كأحلام الزهر
نسجته أفراح الوجود بإبرتين من السحر
فالتف، واستحيا، ودار على الحديقة فى قدر
فكأنه إحدى النجوم الزرق من خلف الستر»
-«.. واليوم قد ضاعت مع النفس البشاشة والصور
بينى استحال لبومة تقعى علَى وقع الخطر
طيرى تجمد ثم مال برأسه فوق الذكر
قمرى علَى ليل المساكين الحيارى.. لم يدر!
قلبى- وقد جف الوجود وضاع فى عينى- كسر»[2].

(١) المصدر ذاته ١/ ٨٥، ٨٦.
(٢) ذاته ٢/ ١١٦، ١١٧.

ثم نلمح هذا التوسل الضارع:

«من يعطنى أرضى التى صارت بقايا محزنه
من يعطنى من حقلى المنزوع منى.. سوسنه
من يعطنى تفاحة خلف الحدود ملونه
من يعطنى موال حب كنت يوماً موطنه
من يعطنى.. أعط الحياة لأجل تلك الآونه!»[1].

إن (اللاجئ الفلسطينى) على استعداد تام للتضحية بحياته، ويقدمها عن طيب خاطر؛ ثمناً لعودته إلى وطنه. وهذا يعكس مدى الشوق الجارف الذى يجتاح كيانه الذى أبعد قسراً عن وطنه. ولذلك فإن هذا الشوق الجارف، والحنين الطاغى يبدوان فى قصيدة أخرى. هى (المتشوقون)[2]، وفيها تلوح صورة (القدس الجريحة):

«أواه للقدس الجريحة وهى تفهق فى الدماء
لما تزل فى أفقها الصلوات تقطر بالبكاء
ما زال فى الأفق المخضب ما تقطع من دعاء
وبقية من ساجدين تجمدوا قرب السماء!
الذل فوق جبينهم تطفو عليه الكبرياء»[3].

إننا نشتم من بين تلك الأسطر الشعرية نزعة متفائلة تعلى بداخل الشاعر تلك النبرات المتمسكة بضرورة العودة:

«سأعود للأرض الجريحة فى صباح مضرم
بالشعب بالشعب الذى لم ينكسر لم يهزم
بالجوع بالحقد العجوز بغربتى بجهنمى
فأعيد أرضى للظلال، وللطيور الحوم

(١) ذاته ٢/ ١١٨.
(٢) ذاته ١/ ٨٨.
(٣) المصدر السابق- ص٨٩.

لسنابل خضراء تجرى فى الخيال وترتمى
للمسجد الأقصى الذى قد كان قبلة مسلم!»[1].

ولكن يبدو أن الشاعر كان يتلهى بهذا التفاؤل المصطنع؛ ليخفى مشاعر الإحباط التى تنتابه. فتصوير الشاعر للقدس الجريحة وهى غارقة فى دمائها، وذكر المسجد الأقصى المعظم وهو فى الأسر يقطع القلوب، ويدميها؛ حسرة على تلك المقدسات التى تبوأت مكاناً علياً فى قلب كل فلسطينى، وكل إنسان عربى أو مسلم. ويضيع الأمل فى استردادها يوماً بعد يوم. لذلك بلغ الشاعر قمة اليأس وهو يعلن عن ذلك فى صورة صريحة تفتقد أى نزعة متفائلة أو أمل مرتجى فى استرجاع تلك الحقوق المغتصبة. وقد بدا ذلك واضحاً فى قصيدته «للموت أكثر من وجه» التى أهداها للشهيد «الفلسطينى (عبدالمحسن حسن) الذى ترك بعد اشتباك ينزف حتى الموت فى مطار زيورخ، ثم ترك فى ثلاجة بسويسرا ما يقرب من شهر.. فمات أكثر من موت»[2].

وقد بلغ الشعور بالإحباط قمته مع مطالبة هذا الجسد المسجى للشهيد النبيل بعودته- ولو ميتاً- إلى دياره التى طرد منها حياً، وحرم من الدفن فى ترابها بعد موته- يقول الشاعر على لسان هذا الشهيد النبيل-:

أرجعونى لجنة عشت فيها ... ثم صارت جميعها منهوبه
أرجعونى إلى المعسكر حتى ... أبصر النصر راية منصوبه
أرجعونى إلى الطيور، وبيت ... وديار جميعها مسلوبه
أرجعونى إلى مساء حزين ... كنت من غضبتى أشق جيوبه
أرجعونى.. فإننى رغم موتى ... لم تزل فى لهفة مشبوبه
.. كل طير يعود إلا طيوراً ... هاجرت من ديارها المنكوبه![3]

وعلى ذلك فقد ظلت الحالة السياسية فى مصر والوطن العربى تنتقل من سىء إلى أسوأ. وهو ما ألقى بظلاله القاتمة على نفوس عدد كبير من شعراء مصر المعاصرين بعد

(١) المصدر السابق- ص٩٠.
(٢) المصدر السابق- ص٦٥٢.
(٣) المصدر السابق- ص٦٥٤.

أن يئسوا من وجود أمل فى إصلاح تلك الحالة السياسية المتردية، فكان الشعور بالإحباط حليفاً تقليدياً لهم.

وفى ختام القول نرجو من الله عز وجل أن تتبدل تلك الأحوال المتردية بعد قيام ثورة ٢٥ يناير الرائعة، وألا تضيع سدى دماء جميع الشهداء الذين دفعوا بأرواحهم فى طريق الحرية والكرامة، وأن تتمكن الثورة من أن تؤتى أكلها وتحقق للشعب المصرى الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وأن تستعيد مصر ومعها جميع الدول العربية حقوقهم المغتصبة، وأن يعم التوحد والتعاضد والتعاون فيما بينهم.

كما نتمنى ألا يسجل فى المستقبل مثل هذا الكم من الشعراء الذين سيصيبهم الإحباط فى ثورة ٢٥ يناير إن هى أخفقت فى تحقيق آمالهم وتطلعاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية- كما سبق وحدث من قبل-.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل